المحاضرة السادسة

الفصل السادس

العلوم الاجتماعية

أ- التاريخ وتدوينه :

التاريخ من العلوم العربية التي كان للدين الاسلامي أثر كبير في نشوئها وتطورها وقد فاق العرب فيه غيرهم من الامم المختلفة . وكان عند العرب قبل الاسلام ما يعرف بأساطير الأولين ، وأخبار مختلفة يتناقلونها شفهياً عن العرب البائدة ، وعن بعض دول اليمن ، وعصر الجاهلية ، وأيام العرب وحروبهم ، وأنسابهم ، وشيء من أخبار بعض الدول والامم المجاورة لهم ممن اتصلوا بهم بواسطة التجارة . ولما جاء الاسلام شغلتهم الدعوة الجديدة عن هذه الاخبار ردحاً من الزمن ، حتى اذا استقر الاسلام كان المسلمون ولا سيما الصحابة منهم قد عنوا بحفظ القرآن ، وأحاديث الرسول (ص) . وكان كتاب الرسول يدونون الآيات القرآنية على الرقوق والالواح ، والاحجار وغيرها . وقد بلغ عدد كتابه ٤٢ كاتباً أشهرهم الخلفاء الراشدون الاربعة ، ومعاوية وكان يكتب له فيما بينه وبين العرب ، وحذيفة بن اليمان وكان صاحب سره ، والحارث بن عوف المري على خاتمه ، وكان عبد الله بن الأرقم يجب الملوك ، وكان الزبير ممن يكتب أموال الصدقات ، والمغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات ، وشرحبيل بن حسنه كان يكتب التوقيعات الى الملوك . وهناك كتاب آخرون كالعلاء ابن الحضرمي ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعمرو بن العاص .. وقد استعانت اللجنة التي ألفت لجمع القرآن في خلافة أبي بكر (ر) بما كان مدوناً على هذه الوسائل . وفي خلافة عثمان (ر) تم ترتيب القرآن ، وانتسخت منه عدة نسخ أرسلت الى الامصار ، وجد المسلمون في انتساخ المصاحف الخاصة والعامة . أما الاحاديث فلم تدون أول الامر الا قليلاً وكان المسلمون يتناقلون أكثر هذه الاحاديث بصورة شفهية في حياة الرسول (ص) وبعد وفاته ، ولعلهم تحاشوا تدوينها مخافة اختلاطها بالقرآن .

ومن بين القلائل الذين دونوا الاحاديث في عهد الرسول (ص) أبو بكر(ر) ، وابن عباس ، وجابر ابن عبدالله ، وعبدالله بن عمر . وروي عن زيد بن ثابت رسالة طويلة في احكام المواريث كتبها سنة ٤٠ هـ . وأما التابعون فكان لاكثرهم صحف وكتب دونت فيها الاحاديث والمسائل الفقهية ، كالزهري ، ومكحول ، والحسن البصري

وغيرهم من التابعين . على أن أقدم الوثائق التي دونت في عهد الرسول (ص) عدا القرآن ، والحديث صحيفة المقاطعة في مكة . والصحيفة أو الدستور الذي كتبه الرسول (ص) بعد هجرته الى المدينة بين المهاجرين ، والانصار ، واليهود . ثم هدنة الحديبية ، ورسائله المختلفة الى الملوك والامراء ، وعهده الى نصارى نجران ... الخ . ويظهر أنهم في خلافة الأمويين بدأوا يهتمون بالتدوين أكثر من أسلافهم ، فدونوا شيئاً من الاخبار ، والسير ، في صحف وكراريس ، بدليل ما يروى عن عبيد بن شرية فانه ألف لمعاوية بن أبي سفيان ، (كتاب الملوك وأخبار الماضين) . و كان معاويه يسمع كل ليلة أخبار العرب ، وأيامها ، وأخبار العجم ، وملوكهة وسياستها . وكان يأتيه غلمان عندهم كتب قد وكلوا بحفظها ، وقراءتها فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك ، وأخبار الحروب ، وانواع السياسات . وأخذ نشاط الحركة العلمية يزداد في آخر العصر الاموي فشرع المحدثون يجمعون الأحاديث النبوية ويدونونها . وقد اقتضى جمعها التحقيق عن رواتها ، ومعرفة سيرهم ، وانسابهم ، وأعمالهم ، وغزواتهم فكان من ذلك كله نواة التاريخ العربي وقد ذكر ابن النديم في الفهرست ، والحاج خليفة في « كشف الظنون » كثيراً من كتب التاريخ كما نتج على مرور الزمن بصورة مباشرة أو غير مباشرة أنواع مختلفة من التاريخ يمكن أن نذكر منها :-

١- تاريخ المغازي والسير : وهي التي تبحث في الغزوات والحروب ، ومناقب الغزاة ، والمجاهدين ، وسيرهم . ومن الأمور التي بحثت في هذه الكتب : أخبار هجرة المسلمين الى الحبشة ، والمدينة وأسماء من هاجر ، وغزوات الرسول (ص) ومن اشترك فيها ، وأقدم من صنف في هذا النوع من التاريخ أشهرهم : عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٢هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠هـ . وابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ وكان من أسبق الناس في تدوين علمه . وكان الزهري (لا يبقي في المجلس شاباً ، ولا كهلاً ، ولا عجوزاً ولا كهلة ، الا سألهم حتى يحاول ربات الحجال) .

ومحمد ابن اسحاق المتوفى سنة ١٥٢هـ وكان قد رحل الى العراق واتصل بالمنصور . وقد وصلنا كتابه في سيرة الرسول (ص) مختصرا في سيرة ابن هشام . وسيرته مقسمة الى : المبدأ ، والمبعث ، والمغازي . أما الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ وكان قاضي الرصافة في خلافة المأمون فلم يبق من كتبه الكثيرة الا كتاب المغازي . وابن سعد وله كتاب (الطبقات الكبير) في ٩ مجلدات ، وهو استاذ البلاذري البغدادي صاحب كتاب فتوح البلدان . وابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م) وهو صاحب السيرة المشهورة .

٢- الوقائع والحروب : ومن جملة الأمور التي كتب فيها مؤرخو العرب ، الاحداث المهمة في التاريخ الاسلامي كالحروب الأهلية مثل وقعتي الجمل وصفين ، وحروبهم

مع الفرس والروم والهنود والبربر . وفي القرن الثاني كانوا يجمعون أخبار الحادثة الواحدة ويدونونها في رسالة أو كتاب .

٣- الانساب : كانت عناية العرب بأنسابهم شديدة جدا وذلك العصبيتهم القبيلية . وقد زادت هذه العناية حين استولى العرب على الفرس والروم ، وانقسم المسلمون الى عرب وموال . فلما جاء العباسيون ازدادت العناية بالانساب ايضاً ، وألفت فيها الكتب ، للرد على الشعوبية ، ومطاعنهم في العرب .

٤- تاريخ الامم الأجنبية : كتب المسلمون في تاريخ الفرس ، والروم ، واليونان ، وملوك بابل ، واليهود ، والنصارى ، والسريان . وقد دفعهم الى ذلك حب الاطلاع على تواريخهم ، وورود ذكرهم في القرآن ، ودخول هذه الاقوام في دين الله . أو وضع الجزية على رؤوسهم ، والخراج على أرضهم . فدونوا تاريخ البلاد التي فتحت عنوة أو صلحاً ، أو أماناً ، وألفوا كتاباً لكل بلد على انفراد ، ثم جمعوه في كتاب واحد ، كفتوح البلدان للبلاذري وغيره . وأصبحت كتب العرب مصادر مهمة لتاريخ الأمم والأقوام الأجنبية بالاضافة الى تاريخ العرب والمسلمين .

٥- تراجم الرجال : وهي الكتابة عن كل من اشتهر بالعلم والمعرفة حتى ولو اشتهر بحديث واحد فقط ، رجلا كان أو امرأة ، يدونون تاريخ مولده ، وأصله ، ونسبه ، والبلاد التي تجول فيها ، والعلماء الذين أخذ عنهم ، وما حدث له في حياته وتاريخ وفاته . يدورون على الناس في بيوتهم ، وعلى العلماء في بلادهم يأخذون ذلك عن الرجال ، والنساء ، وحتى عن الاماء ويسندونه اليهم ، ويتشددون في الرواية والسماع . وقد عني المحدثون بوجه خاص في هذه التراجم لمعرفة أحاديث الرسول الصحيحة بأسانيدها ورواتها خلال العصور . وقد نشأ من ذلك علم (الجرح والتعديل) كما أسلفنا في نقد كل ما كانوا يسمونه ، وألفت الكتب في نقد المحدثين ، وبيان الصادقين منهم والكاذبين . ولم يكن الحديث أساساً للعلوم الدينية فحسب بل كان باعثاً على تدوين العلوم اللغوية أيضاً ، وذلك لمعرفة لغة القرآن .

وقد قلد علماء الفقه والادب ، رجال الحديث في تدوين علوم اللغة وكان الباعث على تدوين النحو المحافظة على القرآن مخافة أن يلحن الناس فيه . ونشأ من ذلك تراجم الشعراء ، ورجال الادب الذين لهم علاقة بهذه العلوم اللسانية . ومن أشهر الكتب التي ألفت : كتب الطبقات كطبقات النحويين وطبقات الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية ، وكتب الفرق ، وكتب الوفيات ... الخ .

٦- تاريخ المدن والبلاد : ويتضمن الاخبار عن المدن ، والبلاد ، وفتحها وعلمائها ، ووصف أماكنها ، ومساجدها ، ومدارسها ، وخططها كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنه ٥٧١ هـ . وتاريخ واسط لابن الدبيشي المتوفى سنة ٦٣٧هـ . وذيل تاريخ بغداد لابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣هـ ... الخ .

٧- التاريخ العام : وهو التاريخ الجامع لاخبار الامم ، والعصـــور المختلفة كتاريخ الرسل والملوك للطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢) . وهو مرتب بحسب السنين . وقد نهج نهجه كثير من المؤرخين ، كالمسعودي المتوفى سنة ٣٨٥هـــ في مروج الذهب . وابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـــ في تجارب الأمم . وابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ في كتابه الكامل . وابن خلدون في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر .

وبالاضـافة الى ما تقدم أخذ المؤرخون يعمدون إلى الكتب القديمة . يختصـرونها وبهذبونها ، ويستدركون فيها ما فات مؤلفيها الأولين ويصـححون هفواتهم ، كما فعل ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ فقد ألف كتابه الكامل وضمه تاريخ الطبري كله بعد حذف الأسانيد ، وزاد عليه ما حدث بعد الطبري ، وما حدث في الاندلس وغيرها في زمن الطبري . ثم جاء أبو الفداء فاختصـــرالكامل ، وأضـــاف اليه كثيرا من أخبار الجاهلية ، والادباء ، والعلماء . وفي العصـــور العباســـية المتأخرة وما بعدها كثرت الكتب التاريخية التي ألفت في مواضـــيع شـــتى غير التي ذكرناها . وقد ذكر الحاج خليفة في كتابه (كشـــف الظنون) ١٢٠٠ مؤرخ من العرب والمســـلمين . ويمكن أن نشير الى أن العرب ألفوا يومئذ في : رسوم دار الخلافة ، والتقاليد المتبعة في قصور الخلفاء ، وألفوا الكتب عن المدارس ، ودور التعليم ، وعن كيفية التعليم فيها . وألفوا كتباً في الرحل المختلفة ، وكتبوا عمن هب ودب ، كما كتبوا عن المشاهد ، والمساجد ، والأديرة ، وألفت كتب تاريخية عن حوادث قرون معينة ، كالحوادث الجامعة عن اخبار المئة الســابعة المنســوب لابن الفوطي . والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر . والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي . كما كتبت التعليقات ، وألفت الذيول المطولة ، كالذيول على تاريخ الخطيب البغدادي للســـمعاني ، وابن الديني ، وابن النجار ، ثم اختصـــرت هذه الذيول كمختصـــر ذيل ابن خلكان . وفي أواخر القرن الثامن الهجري ألف المؤرخ الشـــهير ابن خلدون تاريخه ، وتوســـع فيه بأخبار الاندلس والمغرب ، وبحث في فلســفة التاريخ في كتابه المشـــهور بمقدمة ابن خلدون . وقد بحث فيها التاريخ باعتباره علماً جديداً ، لا رواية ، وأنه يبين ما يعرض للبشـر في اجتماعهم ، من أحوال العمران ، والملك ، والكسـب ، والعلوم ، والصـنائع بوجوه برهانية يتضـح بها التحقيق في معارف الخاصـة والعامة وتدفع بها الاوهام ، والشـــكوك . وهي أول كتاب اســـتعمل التحقيق والبحث العلمي . وخلص التاريخ من القصـص . وقد وصـف أحد المسـتشـرقين هذه المقدمة بقوله : انها مزيج عظيم من القوانين الكونية ، وموسوعة العلوم العصر . وتحتوي على أجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع .

ويقول بارتولد عن ابن خلدون : ان مؤرخ العرب أخصـــب من مؤرخي اليونان علماً وتجربةً ، ويقول أيضاً : ان ابن خلدون يجعل الحضارة الإسلامية فوق ما سبقها من الحضارات وهو جد محق في هذا .

ب- الجغرافية :

وصف العرب كثيرا من المدن والبلاد ، وذكروا طرقها ، وشعابها قبل أن يتأثروا بعلوم اليونان . ومن الأمور التي دفعتهم الى ذلك :-

١- معرفة البلاد التي فتحها العرب في صـــدر الاســـلام لتنظيم الجزية . واســـتيفاء الخراج .

٢- الرحلة في طلب العلم ، وجمع الاحاديث النبوية من البلاد الإسلامية المختلفة التي نزح اليها أصحاب الرسول (ص) ، وسكنها الامراء والقواد والجنود . وتدوين الأدب ، ومفردات اللغة من العرب في البوادي والارياف .

٣- الحج الى مكة من جميع أطراف المملكة الاسلامية .

٤- التجارة وقد كان أهل اليمن والحجاز من أشـــهر تجار العرب في الجزيرة ، وقد ذكر رواة الادب واللغة كالاصـــمعي ، الاماكن العربية ، ثم المنازل اليدوية حتى جاء الهمداني فوصف جزيرة العرب في كتابه و (صفة جزيرة العرب) .

ومن ناحية أخرى نجد ان العرب لم يكتفوا بما نقل اليهم بل توسـعوا فيه ، وزادوا عليه ، وأخذوا يتجولون في البلاد ، حتى اســتطاعوا أن يصـــححوا كثيرا من أخطاء الجغرافيين اليونانين كبطليموس ، واشتملت الكتب التي ألفوها على معلومات مفصلة عن المملكة الاسلامية ، من أواسط آسية إلى الاندلس ، ذكروا فيها الشـيء الكثير عن المدن الكبرى ، والصناعات ، والمحاصيل الزراعية . واعتبر علماء المسلمين بلادهم في المنطقة المعتدلة على مســـافة واحدة بين المنطقة الحارة والباردة . وهذه المنطقة في رأيهم أفضل المناطق لحياة الانسان وأعماله . ولذلك تعد أكثر أقسام العالم حضارة . ومن كتبهم الجغرافية (مســـالك الممالك) لابن حوقل الموصـــلي وقد وضـــحه بالخرائط ، ورســم فيه المدن والانهار ، والجبال ، والبحار، والجزر، وألف الهمداني المعروف بابن الفقيه في حدود آخر القرن الثالث مختصـــر كتاب البلدان . أما ابن رسته فقد ذكر في كتابه (الاعلاق النفيسة): الأشياء العجيبة النادرة في اليمن ، ومصر ، والقسـطنطينية ، والهند ، وبلاد المجوس . وألف المسـعودي المتوفى سـنة ٣٤٦هـ كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) . ثم اتبع العرب طريقة أخرى فألفوا المعاجم الجغرافية ، كياقوت الحموي المتوفى سـنة ٦٣٦ هـــ وهو صـاحب معجم البلدان ، وكتابه قاموس جغرافي ، تاريخي ، أدبي . وألف أبو الفداء (تقويم البلدان) . كما ألف الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ هـ له كتابه الاكليل ، وصفة جزيرة العرب .

وألف أبوالفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة ٣١٠هـ : كتاب الخراج وصنعة الكتابة . وقد وصف فيه بلاد الاسلام وما يجاورها من الممالك . وجاء اليعقوبي في آخر القرن الثالث الهجري ، واعتمد على ملاحظاته الخاصة في معرفة أخبار البلاد ، وطاف المملكة الاسلامية بأسرها فنزل أرمينية ، وخراسان ، ومصر ، والمغرب ، وسافر الى الهند . وابتدأ بوصف بغداد . ورحل المسعودي بين أفريقية والصين .

وبلغ العرب درجة كبيرة في الجغرافية ، ووصف البلدان ، حين ألف ابن حوقل والمقدسي كتبهما . فابن حوقل شاهد بنفسه كل ما كتب عنه ، الا الصحراء الغربية الكبرى فيعترف بانه لم يشاهدها كلها . والمقدسي يقول عن نفسه : انه رسم مع كتابه خريطة بين فيها الاقاليم ، وحدودها وخططها . ولون فيها الطرق المعروفة باللون الاحمر ، والرمال الذهبية باللون الاصفر ، والبحار المالحة باللون الاخضر ، والانهار بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة .

وبين سنة ٢٢٧ و ٢٣٢ هـ أرسل الخليفة الواثق بعثة الى يأجوج ومأجوج . وسافر ابن فضلان من بغداد سنة ٣٠٩هـ الى البلغار الذين يسكنون حول نهر الڤولكا في روسية . وقام أبو دلف برحلة الى بلاد آسية الوسطى ، والشرقية في حدود سنة ٣٣٣ هـ . وخرج من مدينة لشبونة عدة أشخاص ، وأبحروا في المحيط الاطلسي ولعلهم وصلوا الى أمريكة الجنوبية . وكان التجار العرب يأتون بأخبار الالمان والفرنسيين . وفي سنة ٣٧٥ هـ صنف المهلبي للعزيز بالله الفاطمي كتاباً عن السودان . كما ألف أحد علماء الاندلس في القرن الرابع الهجري كتاباً في وصف أفريقية والمغرب . وفي سنة ٤٠٠ هـ كتب أبو الريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ كتابا خاصاً عن الهند بعد أن قام برحلات عديدة فيها . ويعتبر هذا الكتاب من الكتب القيمة التي كتبت بأسلوب علمي ، خال من التحيز . وفي سنة ٥٤٩هـ صنع الادريسي العربي كرة من الفضة لروجر ملك صقلية . كما ألف له كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، . ورسم خارطته المشهورة للعالم وهي لا تزال باقية حتى اليوم . وقد أخذ الأوربيون كثيرا من معلوماتهم الجغرافية عن الادريسي .

واخيراً يمكن أن نقول : ان الادب العربي الجغرافي من أثمن الآثار التي تركها لنا العرب في العصور العباسية المختلفة ، وان المكتبة العربية الجغرافية غنية جداً بالكتب الجغرافية النادرة .